سُورَةُ يُونُسَ

مكية وهي مائة وتسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿الر﴾ وقد تقدَّم الكلام في الحروف المقطَّعة ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات البينات ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي القرآن المعجز في تشريعه وبيانه ﴿الْحَكِيمِ﴾ صفةٌ للكتاب، ووصف بذلك لاشتماله على الحِكَم البالغة، فيراد بالحكيم ذو الحكمة، والقرآن أيضاً حاكم يميز الحق والباطل، ويفصل الحلال والحرام، ويقضي بالعدل والإحسان.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أي العرب ﴿عَجَبًا﴾ الهمزة لإنكار تعجبهم، وتعجيب السامعين منه، لكونه في غير محله، وإنما قال ﴿لِلنَّاسِ﴾ لا عند الناس للدلالة على أنهم اتخذوه أعجوبة لهم ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ بتقدير حرف الجر، أي لأن أوحينا ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ من أعقل رجالهم، دون عظيم من

عظمائهم، وقد كانوا يقولون: العجب أن الله لم يجد رسولاً، يرسله إلى الناس، إلاَّ «يتيم أبي طالب» وهذا من فرط حماقتهم، وقصور نظرهم، وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة، هذا وإنه ﷺ لم يكن يقصر عن عظائمهم فيما يعتبرونه، إلا في المال وخفة الحال، وما ذكروه من أنه يتيم إن أرادوا أن أصل اليتيم مانع من الإيحاء إليه، فهو أظهر بطلاناً، وما ألطف ما قيل إن أنفس الدُّرِّ «اليتيمة» وقيل للحسن: لِمَ جَعَل الله النبيَّ ﷺ يتيماً؟ فقال: لئلا يكون لمخلوق عليه مِنَّة، فإن الله سبحانه هو الذي آواه، وأدَّبه وربَّاه، وأمَّا التقدم بكثرة المال فلا دخل له في ذلك قطعاً، بل إن الوحي تابع للاستعداد الأزلي، والسبق في إحراز الفضائل، جِبِلَّةً واكتساباً، ولا ريب أن النبي ﷺ في ذلك الشأن، في الغايات القاصية، وما أحسن ما قيل:

وأَحْسَنُ منْكَ لَمْ تَرَ قطُّ عَيْني ... وَمِثْلُكَ قَطُّ لَمْ تلدِ النِّسَاءُ
خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ... كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

﴿أَنَّ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أن هي المفسّرة، أي أوحينا إليك بأن أنذر الناس كافةً، وخوّفهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي بشِّرهم برحمة الله ورضوانه لصدقهم وإيمانهم ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي أجراً حسناً بما قدَّموا من الأعمال الصالحة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إذ بالقدم يحصل السبقُ، والوصولُ إلى المنازل الرفيعة، وإضافتها إلى الصدق للدلالة على تحققها وثباتها، وللتنبيه على أن مدار نيل ما نالوه هو صدقُهم، وأصلُ القدم: العضوُ المخصوصُ، وأُطلقت على السبق مجازاً، لكونها سببه وآلته، وأريد من السبق: الفضلُ والشرف، والتقدم المعنوي، فيعبّر بالصدق عن كل فعل فاضل، ويُضاف إليه، كمقعد صدق، ومدخل صدق، إلى غير ذلك، وفسَّره ابن عباس بالأجر الحسن، وابن مسعود بالعمل الصالح، وقال الزجاج: ﴿قدم صدق﴾ أي منزلة رفيعة، والكل متقارب ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم المتعجبون، وإيرادهم ههنا بعنوان الكفر

للتقبيح والتحقير، وترك العطف لجريانه مجرى البيان للجملة التي دخل عليها همزة الإنكار ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي ما أوحي إليه ﷺ في الكتاب المنطوي على الإنذار والتبشير ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّنٌ وظاهر، وهذا اعترافٌ من حيث لا يشعرون، بأن ما عاينوه من الرسول ﷺ خارج عن طوق البشر، ولكنَّهم سموه ساحراً تمادياً في الغيِّ والعناد، كما هو ديدن المكابر اللجوج، وإذا كان في الناس من لا يؤمن بالقرآن، فهذا ليس تقصيراً في هداية القرآن، وإنما العيب فيهم، لأن هدايته كسائر الهداية الطبيعية التي أعرض الناس وعموا عنها، كهداية العقل والبصر ونحوهما، وقد يوقن الرجل أن في عمله مضرة تلحق به، ومع ذلك يعدل عن حكمه، انتهازاً للذة ينالها حسُّه أو وهمه، كما هو في مدمن الخمر والمسكرات، فهو كرجل يغمض عينيه ويمشي في طريق لا يعرفها، فيسقط في حفرة، وتتكسَّر عظامه، هل يُنقص ذلك من قدر بصره؟

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كلام مستأنف سبق لبطلان تعجبهم المذكور، بالتنبيه على بعض ما يدلُّ عليها من شؤون الخلق، وأحوال التكوين والتدبير، أي إن ربكم ومالك أمركم، الذي تتعجبون من أن يرسل إليكم رجلاً منكم، هو الله الذي خلق السموات والأرض.. الآية ثم علا فوق العرش علواً يليق بجلاله ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ التدبير النظر في أدبار الأمور وعواقبها، لتجيء محمودة العاقبة، والمراد ههنا التقدير على الوجه الأتم، والمراد من الأمر أمر ملكوت السماوات والأرض وغير ذلك، أي يقدّر أمر الكائنات، والذي تعجبوا منه

من البعث، والوحي والنبوة والرسالة وقوله سبحانه: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ الاستثناء مفرَّغ من أعم الأوقات أي ما من شفيع يشفع لأحد، في وقتٍ من الأوقات، إلا بعد إذنه تعالى، وذلك عند كون الشفيع من المصطفيْن الأخيار، والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة وهو المؤمن ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي الموصوف بتلك الصفات الجليلة، المقتضية للألوهية والربوبية ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا غيره إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحِّدوه بالعبادة، وأخلصوا له الطاعة، ولا تشركوا به شيئاً، من مَلَكٍ أو نبيّ، فضلاً عن جمادٍ لا يبصر، ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تتفكرون أدنى تفكر، فينبهكم على أنه هو المستحق للربوبية والعبادة، لا ما تعبدونه؟ وإيثارُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ على تفكَّرون، للإيذان بظهور الأمر، وأنه كالمعلوم، الذي لا يفتقر إلى تفكر، بل إلى مجرد إخطار على الذهن.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي إليه رجوعكم بالبعث والنشور، لا إلى غيره، فاستعدُّوا للقائه، والجملة كالتعليل لوجوب العبادة ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه، أي وعد الله بذلك عباده وعداً محققاً من الله ﴿حَقًّا﴾ مصدر آخر مؤكد لغيره، وهو ما دل عليه وعد الله ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي يحيي الخلائق ثم يميتهم، ثم يحييهم ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بعدله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي ويجزي الذين كفروا بشراب من ماء حار، قد انتهى حرُّه، وعذاب أليم، بسبب كفرهم، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على مواظبتهم على الكفر.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾ أي خلقها ذات ضياء، والشمس هي أعظم الكواكب السيارة، كما تدل الآثار، ويشهد له الحسُّ، وفي هذا تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى، ووحدته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، بآثار صنعه في النيِّرين، بعد التنبيه على الاستدلال بما مرَّ من إبداع السماوات والأرض، وإرشاد إلى أنه سبحانه حين دبَّر أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع، فلأن يدبِّر مصالحهم المتعلقة بمعادهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب أولى وأحرى، أي خلقها الله سبحانه حال كونها ذات ضياء ﴿ وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ أي ذا نور، وسمي نوراً للمبالغة، والضياءُ أقوى من النور، فلذا جعله الله للشمس، وقد نبه سبحانه بذلك، على أنه خلق الشمس نيّرة في ذاتها، والقمر نيِّراً بِعَرض لمقابلته الشمس، والاكتساب منها ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ من حيث سيره، وتخصيصُه بالذكر لسرعة سيره، ومعاينة منازله، وإناطة أحكام الشرع به، ولذلك علَّل بقوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ منازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كل ليلة في واحد منها، ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وإن كان تسعاً وعشرين اختفى ليلة واحدة قدَّرها الله سبحانه، ليعلم العباد عدد السنين والشهور والأيام، لإقامة المصالح الدينية والدنيوية، والمراد من الحساب، حساب الأوقات من الأشهر والأيام وغير ذلك مما يتعلق بالمصالح المذكورة ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما ذكر من الشمس، والقمر، على ما حكى من الأحوال ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي ما خلق ذلك ملتبساً بشيءٍ من الأشياء، إلا ملتبساً بالحق، مراعياً لمقتضى الحكمة البالغة ﴿ يُفَصِّلُ

﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ أي الآيات التكوينية المذكورة أو جميع الآيات فيدخل فيه المذكورات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المنتفعون بها، فيستدلون بذلك على شؤون مبدعها جلَّ وعلا، ويعلمون ما في تضاعيف الآيات المنزلة فيؤمنون بها.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي في تعاقبهما بطلوع الشمس وغروبها وكذلك طلوع القمر وأفوله، وقد يراد اختلافهما بحسب الأمكنة، في الطول والقصر، فإن البلاد القريبة من القطب الشمالي أيامها الصيفية أطول، ولياليها أقصر من أيام البلاد البعيدة منه، وكروية الأرض تقتضي أن تكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلاً، وفي مقابله نهاراً ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة، والشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، والرياح، والأمطار ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ من الجبال، والبحار، والأنهار، والحيوانات، والنباتات، والأشجار ﴿لَآيَٰتٍ﴾ كثيرة دالة على وجود الخالق ووحدته، وكمال علمه وقدرته، وحكمته التي من جملتها ما أنكروه، من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والبعث بعد الموت ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خصهم لأن الداعي إلى النظر والتدبر إنما هو تقوى الله والحذر من العاقبة، فهم الواقفون على أن جميع المخلوقات آيات لوجود الخالق دون غيرهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يتوقعونه لإنكارهم البعث، وذهولهم بالمحسوسات عمَّا وراءها، والمراد بعدم الرجاء عدم التوقع مطلقاً أي لا

يعتقدون بلقاء الله[1] ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ من الآخرة لغفلتهم عنها ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ قاصرين همهم على لذائذها وزخارفها، وجُوّز أن يُراد من الرجاء الأمل، أي لا يؤمّلون حسن اللقاء بالبعث، والحياة بالحياة الأبدية العالية، ورضوا منها بالحياة الفانية الدنية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ تاركون النظر ولا يتفكرون فيها لانهماكهم فيما يصدهم عنها.

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ مسكنهم ومقرهم ﴿النَّارُ﴾ لا ما اطمأنوا بها من الحياة الدنيا ونعيمها ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ما واظبوا عليه من الأعمال القبيحة، وأصناف المعاصي والمنكرات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي فعلوا الإيمان، وآمنوا بكل ما يجب أن يؤمن به من الملائكة والكتب والرسل ﴿وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الأعمال الصالحة في نفسها اللائقة بالإيمان ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ يرشدهم ﴿رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ بسبب إيمانهم إلى سلوك السبيل المؤدي إلى الجنة، وإنما لم يُذكر أنَّ مأواهم الجنة، تعويلاً على ظهورها، بملاحظة ما سبق، من بيان مأوى الكفرة، وفي النظم الكريم إشعار بأن مجرد الإيمان، والعمل الصالح، لا يكفي في الوصول إلى الجنة، بل لا بد بعد ذلك من الهداية الربانية بأن يجعل الله لهم نوراً يهتدون به يوم القيامة والمراد بهذا الإيمان؛ الإيمان الخاص المشفوع بالعمل ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ﴾ أي تجري من بين أيديهم

---

(١) لقاءُ اللهِ كنايةٌ عن البعث والنشور، أي لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

وهم على سرر مرفوعة، وأرائك مصفوفة ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ منازلهم في الجنة.

﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا﴾ دعاؤهم فيها ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي ننزّهك يا ألله عن صفات النقص، ونسبّحك تسبيحاً، يقولونه تقديساً لمقامه تعالى، عن شوائب العجز والنقصان، وتلذذاً بذكره، لا عبادةً ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ﴾ فيما بينهم ﴿فِيهَا سَلَٰمٞۚ﴾ أو تحية الملائكة إياهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾[1] أو تحية الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾[2] ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ أي خاتمة دعائهم ﴿أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي دعاؤهم منحصر فيما ذُكِر، أول كلامهم التسبيح، وآخره التحميد، ويتكلمون بما أرادوا.

﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۚ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١﴾.

﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ هم الذين لا يرجون لقاء الله، أُشير إلى بعض عظائم معاصيهم، وهو استعجالهم بما وُعدوا به من العذاب، تكذيباً واستهزاءً، وجيء بلفظ الناس تفظيعاً للأمر ﴿ٱلشَّرَّ﴾ الذي كانوا يستعجلون به، فإنهم كانوا يقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾[3] ونحو ذلك، ﴿ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ أي لو يعجل الله للناس الشرَّ إذ استعجلوه، استعجالهم بالخير ﴿لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۚ﴾ لأُميتوا وأُهلكوا بالمرَّة، وما أُمهلوا طرفة عين، لكن الإنسان خُلق عجولاً، والله

(١) سورة الرعد، آية: ٢٣.
(٢) سورة يسٓ، آية: ٥٨.
(٣) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

تعالى صبور حليم، يؤخر للمصالح الجمة، التي لا يهتدي إليها عقل البشر، ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ كأنه قيل: ولا نعجل لهم العذاب، بل نتركهم إمهالاً واستدراجاً ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ في تمردهم وعتوهم في إنكار البعث والجزاء ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ويتحيرون.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ أي أصابه الضر، من مرضٍ، أو فقر، أو قحط وغير ذلك من الشدائد، إصابةً يسيرة ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أي دعانا لإزالته مخلصاً فيه، واللامُ تفيد اختصاص حدوثه واستقراره للجنب، ففيه مبالغةٌ زائدة ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي في جميع الأحوال، لعدم خلو الإنسان عنها عادةً ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ أي أزلنا ما نزل به من الضر ﴿مَرَّ﴾ مضى على طريقته، ونسي حال الجهد والبلاء ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ كأنه لم يدعنا ﴿إِلَىٰ ضُرٍّ﴾ إلى كشف ضر ﴿مَّسَّهُۥ﴾ ذاقه قبل ذلك، وهذا وصفٌ للجنس ممن هو متصف بهذه الصفات ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما زُيّن له الإعراض عند الرخاء ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي للمشركين المجاوزين الحدَّ في الكفر والطغيان ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الانهماك في الشهوات، والإعراض عن الطاعات، والإسرافُ: مجاوزة الحدِّ، وسُمُّوا أولئك مسرفين، لما أن الله تعالى، إنما أعطاهم القوى والمشاعر، ليصرفوها إلى مصارفها، من العلوم والأعمال الصالحة، وهم قد صرفوها إلى ما لا ينبغي، مع أنها رأس مالهم، ووجه الانتظام مع الآية الأولى، أنه سبحانه أشار في الأولى أن الكفرة يستعجلون نزول العذاب، وبيَّن جلَّ شأنه هنا أنهم يكذبون في ذلك، فلو نزل بالإنسان أدنى شيء يكرهه، فإنه يتضرع إلى الله تعالى في إزالته عنه، وفي حديث للترمذي عن أبي هريرة: «من سرَّه أن يستجيب الله

له عند الشدائد والكُرَب، فَلْيكثر الدعاء في الرخاء»[1] والآثار في ذلك كثيرة.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ﴾ الأمم الخالية مثل قوم نوح، وهود، وعاد، وأضرابهم ﴿ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من قبل زمانكم والخطاب لأهل مكة ﴿ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ حين ظلموا بالتكذيب، والتمادي في الغي والطغيان، ﴿ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالحجج الدالة على صدقهم ﴿ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ أي وما استقام لهم أن يؤمنوا، لفساد استعدادهم، وخذلان الله لهم، وعلمه تعالى بأنهم يموتون على كفرهم، واللام لتأكيد النفي ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع، الذي هو عذاب الاستئصال بالمرة ﴿ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي كل طائفة مجرمة، وفيه وعيد شديد لكفار مكة، لأنهم مشتركون فيما يقتضي الإهلاك.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ والمعنى ثم أخلفناكم في الأرض بعد أولئك القرون ﴿ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾؟ أيْ أيَّ عمل تعملون من الأعمال الحسنة، كقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أحسَنُ عَمَلا﴾ ففيه إشعار

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٣٧٩ في الدعوات، ورواه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٤٤ من حديث سلمان الفارسي مرفوعاً وقال: صحيح الإسناد.

بأن المراد من الاستخلاف إنما هو ظهور الأعمال الحسنة، وأما الأعمال السيئة فبمعزل عن ذلك.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ التفات من خطابهم إلى الغيبة، إعراضاً عنهم، وتوجيهاً إلى الرسول ﷺ، بتحديد جناياتهم المضادة لما أُريد منهم بالاستخلاف، والمراد من الآيات الآيات الدالة على التوحيد، وبطلان الشرك، والإضافة لتشريف المضاف، والترغيب للإيمان بها والترهيب عن تكذيبها ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يعني المشركين وضع الموصول موضع الضمير ذماً لهم بذلك، أي قالوا لمن يتلوها عليهم، وهو رسول الله ﷺ ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ بكتاب آخر نقرؤه، ليس فيه ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب، أو ما نكرهه من معايب آلهتنا ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان الآيات المشتملة على ذلك آيات أخرى ولعلهم قالوا ذلك كيداً، ليتوسلوا به إلى الاستهزاء به ﷺ، وليس مرادهم أنه لو جاءهم آمنوا ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول لهم ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾ أي ما يصحُّ ولا يستقيم أصلاً تبديله ﴿مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾ أي من قبل نفسي وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل احتقاراً لهم، لاستلزام امتناعه، امتناع الإتيان بقرآن آخر بطريق الأولى ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي ما أتَّبع في شيء مما آتي به ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من غير تغيير له في شيء أصلاً، فكأنه قيل: ما أفعل إلاَّ اتباع ما يُوحى إليَّ، وهو تعليل لصدر الكلام، ولما عرَّضوا به بهذا السؤال أن القرآن كلامه ﷺ، ولذلك قيد التبديل في الجواب بقوله: ﴿مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾ وسماه عصياناً عظيماً مستتبعاً لعذاب عظيم، بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بالتبديل والتحريف ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة، وفيه إشعار بأنهم استوجبوه، بهذا الاقتراح الموحي بالسخرية والاستهزاء.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ تحقيق لحقية القرآن، وكونه من عند الله تعالى، والمعنى: إن الأمر كله منوط بمشيئته تعالى، وليس لي منه شيء قط، ولو شاء عدم تلاوتي له عليكم، بأن لم ينزله عليَّ، ولم يأمرني بتلاوته ما تلوته عليكم ﴿ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ أي ولا أعلمتكم به بلساني ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ﴾ مقدار مدة أربعين سنة، بطريق الاستشهاد عليه بما شاهدوا منه ﷺ، في تلك المدة الطويلة، من الأمور الدالة على استحالة ذلك من جهته ﷺ، والمعنى: قد أقمتُ فيما بينكم دهراً مديداً، تحفظون أحوالي طُرَّاً ﴿ مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ أي من قبل نزول القرآن الكريم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا تلاحظون ذلك، فلا تعقلون امتناع صدوره من مثلي، فإنَّ ذلك غير خافٍ، على من له عقل سليم، بل إنَّ من كان له أدنى مُسْكَةٍ من عقلٍ، إذا تأمل في أمره ﷺ، وأنه نشأ بينهم في مدة طويلة، من غير مصاحبة العلماء، في شأن من الشؤون، ولا مراجعةٍ إليهم في فن من الفنون، ولا مخالطة للبلغاء في المحاورة والمفاوضة، ولا خوضٍ معهم في إنشاء الخطب والمعارضة، ثم أتى بكتاب بهرتْ فصاحتُه كلَّ ذي أدب، وحيَّرت بلاغتُه مصاقع العرب، واحتوى على بدائع أصناف العلوم، ودقائق حقائق المنطوق والمفهوم، لا يبقى عنده شائبة اشتباه، في أنه وحي منزلٌ من عند الله عزَّ وجل.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ استفهام إنكاري معناه النفيُ، أي لا أحد أظلم ممن افترى عليه سبحانه كلاماً، فقال هذا من عند الله، فإنه أظلم من كل ظالم ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾ فكفر بها كما فعل المشركون بتكذيبهم للقرآن ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ ضمير الشأن، وفائدته الإيذان بفخامة مضمون الكلام، وتقريره في الذهن، لأن الضمير لا يفهم من أول الأمر،

فيبقى الذهنُ مترقباً لما يعقبه، فيتمكن عند وروده فضل تمكُّنٍ ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا ينجون من محذور، ولا يظفرون بمطلوب.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ حكاية لجناية أخرى وهي من عطف القصة على القصة، أي يعبدون متجاوزين الله أحجاراً وأصناماً لا تضرُّ ولا تنفع، لأنها جماد لا يقدر على نفع ولا ضر، والمعبود الحقُّ ينبغي أن يكون مثيباً ومعاقباً، حتى تكون عبادته بجلب نفع أو دفع ضر ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الأصنام ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تشفع لنا في الآخرة، إن يكن بعث، وهذا من فرط جهالتهم، حيث تركوا عبادة الموجد، الضار النافع، إلى عبادة ما يُعلم قطعاً أنه لا يضر ولا ينفع، على توهم أنه ربما يشفع لهم عنده سبحانه، ونظيره في هذا الزمان، اشتغال كثير من الخلق، بتعظيم قبور الأكابر، على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم، فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أي أتخبرون الله بما لا وجود له أصلاً، إذ لو كان لَعَلِمهُ علاَّم الغيوب، وفيه توبيخ لهم وتهكم بهم لما يدعونه من المحال ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بما لا يعلمه كائناً في السماوات ولا في الأرض ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم، وعن الشركاء الذين يشركونهم به.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بيانٌ بأن التوحيد والإسلام ملة قديمة، اجتمعت عليها الخلائق قاطبة، فطرةً وتشريعاً، وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغُواة، أي وما كان الناس كافة من أول الأمر، إلاَّ متفقين على الحق والتوحيد، من غير اختلاف، رُوي هذا عن ابن عباس، ومجاهد، ويؤيده قراءة ابن مسعود: «إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى الهُدَى»[1] وذلك من عهد آدم إلى زمن نوح ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ بأن كفر بعضهم، وثبت آخرون على ما هم عليه، فخالف كل من الفريقين الآخر ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإبقاء المحق، وإهلاك المبطل.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ حكاية لجناية أخرى لهم، والقائلون أهل مكة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ من الآيات التي اقترحوها، كآية موسى وعيسى، كأنهم لفرط العتو والفساد، لم يعدُّوا المعجزات البينات التي ظهرت على يديه ﷺ من الآيات الباهرة، والمعجزات المتكاثرة، لا سيما القرآن العظيم، الباقي إعجازه على وجه الدهر، إلى يوم القيامة، ولو أنصفوا لاستغنوا عن كل آية غيره ﷺ، فإنه الآية الكبرى، ومن رآه وسَبَر أحواله، لم يكد يشكُّ أنه رسول الله ﷺ ﴿فَقُلْ﴾ لهم في الجواب ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المختص بعلمه، فلعله يعلم في إنزال الآيات المقترحة، مفاسد تصرف عن إنزالها، وكأنه يقول: إن ما طلبوه من أمور الغيب الخفية، التي لا يعرفون عواقبها، وأمرُ الغيب مختصٌّ بالله تعالى وهو الذي يعلم ما به

---

(١) هذه القراءة محمولة على التفسير، لا على أنها قراءة من القراءات المتواترة، فتنبَّهْ والله يرعاك.

الصلاح، لا أنتم ولا غيركم ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ هذا وعيد وتهديد، أي فانتظروا نزول العذاب بكم، إني معكم من المنتظرين لما يفعل الله بكم، بجحودكم الآيات العظام واقتراحكم غيرها.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي صحةً وسعةً ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ كقحطٍ ومرض ﴿مَّسَّتْهُمْ﴾ أي نزلت بهم حتى أحسُّوا بسوء أثرها فيهم، وإسنادُ المسِّ إلى الضراء، وإسنادُ الإذاقة إلى ضمير الجلالة، من الآداب القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ والمرادُ بالناس: كفارُ مكة، لما رُوي أن الله تعالى، سلَّط عليهم القحط سنين، حتى كادوا يهلكون، فطلبوا منه ﷺ أن يدعوَ لهم، ووعدوه بالإيمان، فلمّا دعا لهم، ورحمهم الله، فأخصبت البلاد وكثرت الخيرات، طفقوا يطعنون في آياته تعالى، ويعاندون رسوله ﷺ ويكيدونه ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ بالطعن فيها والتكذيب بأنها من عند الله، وسُمِّي الاستهزاء والتكذيب مكراً، لأنه نوع من الكيد الخبيث لإطفاء نور الله، قال مجاهد ﴿مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ استهزاء وتكذيب، ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي قل لهم: اللهُ أعجل عقوبةً، وعذابه أسرع وصولاً إليكم، وتسميةُ العقوبة بالمكر، لوقوعها في مقابلة مكرهم ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الذين يحفظون أعمالكم ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ تحقيق للانتقام وتنبيه على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف على الحفظة، فضلاً على أن يخفى على الله تعالى، وكيفية كتابة ذلك، مما لا يلزم العلم به، وهي تعليل لأسرعية مكره سبحانه: ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[1].

(١) سورة فاطر، آية: ٤٣.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أي هو تعالى بقدرته الذي يحملكم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن التي تسير فوق سطح الماء، ويجعلكم قادرين على قطع المسافة ﴿فِي البَرِّ﴾ مشاة أو ركباناً ﴿وَالبَحرِ﴾ بالفُلْك ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ أي في السفن فوق سطح الماء وفي لُجَّة البحر ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ بمن فيها عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة، كأنه يذكره لغيرهم، ليتعجب من حالهم، وينكر عليهم ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ أي ليّنة الهبوب موافقة لمقصدهم ﴿ وَفَرِحُوا۟ بِهَا ﴾ بتلك الريح لطيبها ﴿ جَآءَتْهَا ﴾ جواب إذا، أي فاجأتها واستولت عليها ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ ذات عصفٍ، شديدة الهبوب، تكسر كل شيء، يقال: عصفت الريحُ عصوفاً أي اشتدت، وأصل العصف: السرعةُ، والعاصفُ من باب النسب، كاللابن، والتَّامِر، يستوي فيه المذكر والمؤنث، ولذا لم يقل عاصفة، مع أن الريح مؤنث ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ ﴾ وهو ما علا وارتفع من اضطراب الماء ﴿ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من جميع أمكنة مجيء الموج عادة ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ ﴾ أي أيقنوا أنهم أُهلكوا وسُدَّت عليهم مسالك الخلاص، كمن أحاط به العدوُّ ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي أخلصوا الدعاء لله، واستغاثوا به وحده ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ من غير إشراك به لعودتهم للفطرة، وزوال المعارِض من شدة الخوف ﴿ لَئِنْ ﴾ اللام موطئة للقسم، أي يقولون: والله لئن ﴿ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ ﴾ الورطة والأهوال ﴿ لَنَكُونَنَّ ﴾ بعد ذلك أبداً ﴿ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الموحِّدين، مؤمنين بك، متمسكين بطاعتك، وشاكرين لنعمتك، وإنما ورد اللفظ بصيغة اسم الفاعل ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ ولم يقولوا: لنشكرنك، للمبالغة والدلالة على الاستمرار في الشكر والثبوت عليه.

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ ﴾ بإجابة دعائهم ممَّا غشيهم من الكربة، والفاء للدلالة على سرعة الإجابة ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فاجؤوا الفساد في الأرض، وسارعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ مبطلين فيه، وهو احترازٌ عن الإفساد بحق، كتخريب قلاع الكفرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ توجيهُ الخطاب إلى أولئك الباغين، للتشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ ﴾ الذي تتعاطونه ﴿ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ فإن وباله يرجع إليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ﴿ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ منفعة الحياة الدنيا، وهي فانية لا تبقى، ويبقى عقابها، وفيه بيان لكون ما فيها من المنفعة العاجلة شيئاً غير معتد به سريع الزوال ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ في القيامة، أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا ثم ترجعون إلينا ﴿ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالجزاء عليه، وهو وعيد كقول الرجل لمن توعَّده: سأخبرك بما فعلتَ، وفي الآية الزجر عن الفساد والبغي، عن أنسٍ قال: قال ﷺ: «ثلاثٌ هُنَّ رواجعُ على أهلها: المكرُ، والنكثُ، والبغيُ، ثمَّ تلا ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ ﴿وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾»[1] قال ﷺ: «ما من ذنبٍ أجدرُ أن يُعجِّلَ اللهُ لصاحبه العقوبة، من البغي، وقطيعة الرحم»[2].

---

(١) أخرجه أبو نعيم والديلمي.

(٢) أخرجه البيهقي من حديث أبي بكرة مرفوعاً، وانظر تفسير ابن كثير ٢/٤٢٨.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ كلام مستأنف، مسوقٌ لبيان شأن الحياة الدنيا، وقصر مدة التمتع فيها، وقرب زمان الرجوع الموعود، شبَّه حالها العجيبة، في سرعة تقضِّيها، وانصرام نعيمها، غِبَّ إقبالها، واغترار الناس بها، بحال ما على الأرض من أنواع النباتات، في زوال رونقها ونضارتها، وذهابها حُطاماً، بعدما كانت غضَّةً طريَّة، قد التفَّ بعضها على بعض، وازَّينتْ الأرض بألوانها، بحيث طمع الناس، وظنوا أنها سلمت من الجوائح ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ كمثل مطرٍ نزل من السماء ﴿ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ ﴾ أي كثر بسببه واختلط به ﴿ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ فاشتبك حتى خالط بعضُه بعضاً ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ ﴾ كالبُرِّ، والبقل والثمار ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ كالكلأ والحشيش ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أي بهجتها وحسنها من النبات، والتزخرفُ عبارة عَن كمال حسن الشيء ﴿ وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ أي تزينت بأصناف النباتات، وأشكالها، وألوانها المختلفة، كعروسٍ أخذت من ألوان الثياب، والزينة، وتحلَّتْ بها ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ ﴾ أي أهل الأرض ﴿ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾ أي متمكنون من حصدها ورفع غلتها ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا ﴾ أي نزل بها ما قدَّرناه من العذاب، وهو هلاك زرعها بما يستأصله من الآفات كالبرد، والجراد، والسموم وغير ذلك ﴿ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ فيه الإشارة إلى أنه لا فرق في إتيان العذاب، بين زمن غفلتهم، وزمن يقظتهم ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا ﴾ أي زرعها وسائر ما على الأرض من النبات ﴿ حَصِيدًا ﴾ أي كالمحصود من أصله ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ ﴾ أي كأن لم ينبت زرعُها، من غَنِيَ بالمكان إذا أقام فيه ﴿ بِٱلْأَمْسِ ﴾ فيما قبله، وهوَ مَثَلٌ في الوقت القريب، والممثَّل به هو زوال خضرة النبات فجأة، وذهابه حطاماً بعدما كان غضَّاً طريّاً، وزيَّن الأرض حتى

طمع أهلها فيه، وظنُّوا أنه قد سلم من الجوائح ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التفصيل البديع ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي الآيات القرآنية، نوضِّحها ونبيِّنها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ما في تضاعيفها من العبر، وتخصيص تفصيلها بهم، لأنهم المنتفعون بها.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ترغيب للناس في الحياة الأخروية الباقية، أي يدعو الناس إلى الجنة، حيث يأمرهم بما يفضي إليها، وسميت الجنة ﴿دَارِ السَّلام﴾ لسلامة أهلها عن كل ألمٍ وآفة، أو لأن الله تعالى يسلم عليهم ﴿سَلَٰمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إلى طريق مستقيم هو الإسلامُ، والتدرع بلباس التقوى، وفي تعميم الدعوة، وتخصيص الهداية بالمشيئة، دليل على أن الأمر غير الإرادة، وأن المصرَّ على الضلالة لم يرد الله رشده، فالكافر مأمور، وليس بموفَّق، ومشيئته تعالى تابعة للحكمة، فمن علم أنه لا ينفع فيه اللطف لم يوفقه، لأنه يكون عبثاً، والحكمة منافية للعبث، فهو جلَّ وعلا يهدي من ينفعه اللطف.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ أي العملَ، بأن فعلوا المأمور به، واجتنبوا المنهيَّ عنه ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبةُ الحسنىٰ، وهي الجنةُ ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي النظر إلى وجه ربهم الكريم جلَّ جلاله، وهو التفسير المأثور عن أبي بكر، وعلي، وابن عباس، وابن مسعود، وروي مرفوعاً إلى رسول ﷺ من طرق شتى، روى مسلم عن صهيب بن سنان عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، يقول تبارك وتعالى: تُريدون شيئاً أزيدكم؟ يقولون: ألَم تُبيضْ

وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم»[1] وفيه إثبات رؤية الله للمؤمنين، أكرمنا الله في الجنة بسعادة لقائه ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ أي لا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾ غَبَرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ هوانٌ، والتنكير للتحقير، والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار من حزن وسوء، والجملةُ لبيان أمنهم من المكاره، إثْرَ بيان فوزهم بالمطالب ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المذكورون باعتبار اتصافهم بما تقدم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لا زوال فيها، ولا انقراض لنعيمها.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ لما شرح الله سبحانه أحوال المسلمين، وما أعدَّ لهم من الكرامة شرح في هذه الآية حال من أقدم على السيئات، والمراد من السيئات: الشركُ والعصيان ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ أي وجزاء الذين كسبوا السيئات، جزاءُ سيئة بمثلها، أي يجازى سيئة بسيئة مثلها، لا يزاد عليها كما يزاد في الحسنة ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي هوانٌ عظيم، فالتنوينُ هنا للتفخيم ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ من عقابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ من مانع يعصمهم من عذابه ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ غُطِّيت ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ لفرط سوادها وظلمتها ﴿مُظْلِمًا﴾ أي كأنما أُلبست وجوههم سواداً من الليل المظلم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الدائمون فيها لا يخرجون منها أبداً.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ١٨١ وزاد في رواية أخرى: «ثم تلا ﷺ هذه الآية ﴿للذين أَحْسَنُوا الحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وأخرجه الترمذي برقم ٢٥٥٥.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ الضمير في ﴿نَحشُرُهُم﴾ لكلا الفريقين، لأنه المتبادر من قوله تعالى ﴿جَمِيعًا﴾ ومن أفراد الفريق الثاني، في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ أي نقول للمشركين من بينهم، والإخبار بحشر الكل في تهويل اليوم أدخل، وتوبيخُهم على رؤوس الأشهاد أفظع ﴿ مَكَانَكُمْ﴾ أي الزموا مكانكم، والمراد انتظروا حتى تنظروا ما يفعل بكم، وهي كلمة مختصة بالتهديد والوعيد ﴿ أَنتُمْ﴾ توكيد للضمير ﴿ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ المراد بها: الأصنامُ ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي ففرقنا بينهم، وقطعنا الوُصَل التي كانت بينهم، وهو من زلتُ الشيء من مكانه أزيله أي أزلته، والتضعيف للتكثير لا للتعدية ﴿ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ أي من عبدوهم من دون الله، من الأوثان والأصنام، فإن أهل مكة إنما كانوا يعبدونها، وهم المعنيُّون بأكثر هذه الآيات، ونسبةُ القول لها غيرُ بعيد من قدرته سبحانه، فينطقها الله الذي أنطق كل شيء، في ذلك الموقف المهيب، فتقول لهم: ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ أي نتبرأ من عبادتكم لنا، واعتقادكم بألوهيتنا، وإنما تبرؤوا منهم، لأنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم، لأنها الآمرة لهم بالإشراك بالله تعالى.

﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه العليم الخبير، العالم بكُنْهِ الحال، قال شركاؤهم عند قول المشركين والله إياكم نعبد، فقال الشركاء: فكفى بالله شهيداً ﴿ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي ماكنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين، لا نسمع، ولا نبصر، ولا نعقل.

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام المدهش، وهو مقام الحشر وفي ذلك الوقت ﴿تَبْلُواْ﴾ تُختبر وتذوق ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنةً كانت أو كافرة، سعيدةً أو شقية ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ ما قدّمتْ من العمل، مستتبعاً لآثاره، من نفع أو ضر، وخير أو شر ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي وردُّوا إلى الله المتولي جزاءهم ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ ربهم الجليل المتولي لأمرهم ﴿ٱلْحَقِّ﴾ المتحقق في ربوبيته لا ما اتخذوه رباً باطلاً، فإن قلت: قد قال الله سبحانه في آية أخرى: ﴿وأَنَّ الكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ قلنا: المولى في اللغة يُطلق على المالك، وعلى الناصر، فمعناه هنا المالك، وهناك الناصر ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي ضاع وذهب عنهم وظهر ضلالُه ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ما كانوا يدعون أنها آلهة، وضمير الجمع للنفوس المدلول عليها بكل نفس، والعدول إلى الماضي ﴿ضَلَّ﴾ للدلالة على التحقق والثبوت.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لأولئك المشركين ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ أي منهما جميعاً، من ينزل لكم الغيث والقطر من السماء، ويخرج لكم الزروع والثمار من الأرض؟ الأول بمنزلة الفاعل، والثانية بمنزلة القابل، فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية، ومواد أرضية ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ ؟ أي من يستطيع خلقهما على هذه الفطرة العجيبة؟ ومن وقف على تشريحهما، وقف على ما يبهر العقول ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي ومن ينشىء الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، والطير من البيضة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة؟ وقيل: المراد بالحيّ والميت، المؤمن والكافر، وعلى هذا القول يكون اللفظ من باب الاستعارة، والأول أولى ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؟ أي ومن يلي

تدبير أمر العالم جميعاً؟ وهو تعميم بعد تخصيص، وفيه إشارة إلى أن الكل منه سبحانه ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بلا تَلعْثُم ولا تأخير ﴿ٱللَّهُ﴾ إذ لا مجال للمكابرة والعناد لغاية وضوحه، والاسم الجليل مبتدأ والخبر محذوف، أي اللهُ يفعل ما ذُكر من الأفاعيل لا غيره، وهذه الآية صفعةٌ لوجوه القدرية، الزاعمين أن الحرام غير رزقٍ لله، بل العبد يرزق نفسه منه، وتلْفَحُ وجوه أناس يزعمون أن الذي يدبر الأمر في كل عصر قطبُه، وهذا ذهاب إلى القول بوحدة الوجود، وهذا ضلال مبين عند المتكلمين، وأهل الضوفية الحقة ﴿فَقُلْ﴾ عند ذلك يا رسول الله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ الهمزة لإنكار الواقع، أي أتعلمون ذلك فلا تتقون عذابه، بإشراككم به سبحانه؟.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ أي ذلكم الذي اعترفتم باتصافه بالنعوت المذكورة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ مالككم ومتولي أموركم على الإطلاق ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيته، والمتحقق ألوهيته، لأنه هو الذي أنشأكم، ورزقكم، ودبَّر أموركم ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾؟ فمن تخطَّى الحقَّ الذي هو عبادة الله، وقع في الضلال، لأنه لا واسطة بين الحق والضلال ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؟ أي فكيف تصرفون عن الحق إلى الضلال، مع قيام البرهان؟ استفهام إنكاري للإيذان بأن الانصراف من الحق إلى الضلال، ممَّا لا يكاد يصدر عن العاقل.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما ثبت أنه ليس بعد الحق إلاَّ الضلال كذلك ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه وقضاؤه العادل ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ أي على الذين تمرّدوا في الكفر، وخرجوا عن حدِّ الاستصلاح ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي حقت على أولئك المتمردين كلمة العذاب لأنهم لا يؤمنون.

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم ﴾ احتجاج آخر على أحقية التوحيد، وبطلان الإشرك، والسؤالُ للتبكيت والإلزام، أي هل يوجد من الأوثان والأصنام ﴿ مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ أي من ينشىء الخلق من العدم، ثم يُفنيه، ثم يعيده ويحييه؟ ولما كانوا مفحمين لا يستطيعون الجواب، أُمر ﷺ أن يكشف لهم باطلهم بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ أي الله يبدأ ويعيد لا غيره من الشركاء، وفُهِم الحصر بدلالة الفحوى ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾؟ الإفكُ الصرف عن الشيء، أي كيف تُقلبون من الحقِّ إلى الباطل؟ وتُصرفون عن الهدى إلى الضلال؟

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ احتجاج آخر على ما ذُكر، جيء به إلزاماً لهم على ضلالهم في عبادة غير الله، والمعنى: هل من يهدي إلى الحق، بإعطاء العقل، وبعثة الرسل، وإنزال الكتب، والتوفيق إلى التدبر بما نصب في الآفاق، والأنفس، هل هو الله سبحانه أم الشركاء؟ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ ﴾ أي الله يهدي له دون غيره، أي قل لهم: إن عجزت آلهتكم عن ذلك، فالله وحده هو القادر على هداية الضال، وإنارة السبيل، وبيان الحق الساطع ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ فالمقصود به التعميم وإن كان الفاعل في الواقع الله عزَّ وجل، والتقدير أفمن يهدي غيره إلى الحق ﴿ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ ﴾ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال، وأصله لا يهتدي أي لا يهتدي بنفسه فضلاً عن هداية غيره ﴿ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾ أي إلاَّ أن يهديه الله سبحانه ﴿ فَمَا لَكُمْ ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ لكم، في اتخاذكم هؤلاء شركاء لله

سبحانه، والاستفهام للإنكار التوبيخي، وفيه تعجيبٌ من حالهم ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما يقتضي صريح العقل ببطلانه.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ﴾ كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى، لبيان عدم فهمهم للبرهان النيّر، أي ما يتَّبع أكثرهم في معتقداتهم إلاَّ ظناً واهياً، من غير مستندٍ من دليل أو برهان، بل مجرد ظنون وأوهام، وخرافات فاسدة يتبعون بها آباءهم، ووجه تخصيص هذه الاتباع لأكثرهم، للإشعار بأن بعضهم قد يقفون على حقِّية التوحيد، وبطلان الشرك، لكنْ لا يقبلونه مكابرة وعناداً، وقيل: المراد بالأكثرِ الجميعُ ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ عن العلم واعتقاد الحق ﴿شَيْئًا ۚ﴾ من الإغناء، وفيه دلالة على وجوب العلم في الأصول الاعتقادية، وعدم جواز الاكتفاء بالتقليد، وأن إيمان المقلّد غير صحيح ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فيجازي عليها، وعيد لهم على أفعالهم القبيحة.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الهدايات المستوجبة للاتباع، التي من جملتها الحجج البينة بحقية التوحيد وبطلان الشرك، أي ما كان هذا القرآن لأن يُفترى من الخلق، وأن يكون صادراً من غير الله تعالى ﴿وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ولكن اللهُ أنزل هذا القرآن، مصدّقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية، كالتوراة والإنجيل، ولا يكون كذباً بحال من الأحوال، كيف وهو شاهد على صحتها، وتصديق الكتب له، بأن ما فيه من العقائد الحقة،

مطابق لما فيها، وهو مشتمل على قصص الأولين، حسبما ذكر فيها، وهو معجز دونها فهو الصالح لأن يكون حجةً وبرهاناً لغيره، لا العكس ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ما كتب وأُثبت من الحقائق والشرائع ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك أنه كلام الله منتفياً منه الريب ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وتصديق من رب العالمين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾ أم منقطعة وهي مقدرة ببل والهمزة لإنكار الواقع، أي بل أيقولون افتراه النبي ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهم، إظهاراً لبطلان مقالتهم: إنْ كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في البلاغة، وحسن النظم، وقوة المعنى، فإنكم مثله في العربية والفصاحة، أي فأتوا من عند أنفسكم، أو ممن تقدمكم من فصحاء العرب، كامرىء القيس، وزهير، وأمثالهما، بسورة مماثلة له في صفاته الجليلة، فحيث عجزتم عن ذلك، دلَّ على أنه ليس من كلام البشر، بل هو من كلام خالق الكون، رب العزة والجلال ﴿وَٱدْعُوا۟﴾ للمعاونة والمظاهرة ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ دعاءه والاستعانة به، من آلهتكم التي تزعمون أنها ممدة لكم في المهمات، وممن أمكنكم أن تستعينوا به ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي سوى الله تعالى، فإنه وحده قادرٌ على ذلك، ولا يقدر عليه أحد من خلقه، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنه اختلقه، فإنَّ ذلك مستلزم لإمكان الإتيان بمثله.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي كذبوا القرآن، وسارعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبروا ما فيه، ويقفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد، الدالة على كونه كلام رب العالمين، والتعبير عنه بهذا العنوان، دون أن يقال: بل كذَّبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه، للإيذان بكمال جهلهم به، وأنهم لم يعلموه ولم يدركوا ما فيه من وجوه الإبداع والإعجاز، وأنَّ تكذيبهم به، إنما هو بسبب عدم إحاطتهم بعلمه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي ولم يقفوا بعد على معانيه المنبئة عن علو شأنه، وسطوع برهانه، ولم يتبين لهم إلى الآن تأويل ما فيه، من الإخبار بالغيوب، حتى يظهر أنه صدق أم كذب، والمعنى: إن القرآن معجز من جهة النظم، والمعنى، ومن جهة الإخبار بالغيب، وهم فاجؤوا تكذيبه، قبل أن يتدبروا نظمه، ويتفكروا في معناه، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل تكذيبهم من غير تدبر وتأمل ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم في معجزاتهم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خطاب لسيد الرسل أو لكل من يصلح له، والمراد بالظالمين الذين كذبوا الرسل من السابقين واللاحقين، أي انظر كيف أخذهم الله بالعذاب والهلاك، بسبب ظلمهم وبغيهم؟ فكما أهلك الله أولئك الطغاة، يهلك هؤلاء المكذبين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي منهم سيؤمن به ويتوب عن الكفر ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ﴾ أي لا يصدّق به في نفسه، لفرط غباوته ولسخافة عقله، وعجزه عن التخلص من الشكوك والأوهام التي أَلِفَها، فيموت على كفره، معانداً أو شاكاً ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي بكلا الفريقين، من المعاندين، والشاكين، لاشتراكهما في أصل الإفساد.

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ وإن أصرُّوا على تكذيبك، بعد إلزام الحجة، وأُوِّل بذلك، لأن أصل التكذيب حاصل، فلا يصح فيه الاستقبال ﴿ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ فتبرأ منهم، فقد أعذرتَ، والمعنى قل لهم: لي جزاءُ عملي، ولكم جزاءُ عملكم ﴿ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي لا تؤاخذون بعملي، ولا أؤاخذ بعملكم، ومعنى الآية الزجر والردع.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ ﴾ أي ومن المكذبين أناس، يستمعون إليك إذا قرأت القرآن، ولكنْ لا يقبلونه، كالأصمّ الذي لا يسمع أصلاً، لكونهم مطبوعاً على قلوبهم، بحيث لا سبيل إلى إيمانهم ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾ أي هل أنت تقدر على إسماعهم؟ ﴿ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي ولو انضمَّ إلى صممهم عدمُ تعقلهم، والأصم العاقل، ربما تفرس إذا وصل إلى صماخه دويٌّ، أمَّا إذا اجتمع فقدانُ السمع، والعقل، فقد تمَّ الأمر، وفيه تنبيه على أن استماع الكلام، لفهم المعنى المقصود منه، ولذلك لا يوصف به البهائم، وهو لا يأتي إلاَّ باستعمال العقل السليم، في تدبره وتفكره، وعقولُهم لمَّا كانت عليلة، بمعارضة الوهم، ومشايعة الألف والتقليد، تعذَّر فهمهم الحِكَم والمعاني الدقيقة، فلم ينتفعوا بمجرد الألفاظ إلاَّ كما تنتفع البهائم من كلام الناعق.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ ﴾ بأبصارهم الظاهرة، ويعاين دلائل نبوتك، ولكنْ لا يصدِّقونك، ولا يهتدون بها كالأعمى ﴿ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ ﴾؟ أي

هل تقدر على هدايتهم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾؟ أي وإن انضمَّ إلى عدم البصر، عدمُ البصيرة؟ والمقصودُ من الإبصار هو الاعتبار، والعمدة في ذلك البصيرة، ولذلك قد يتفطّن الأعمى المستبصر، لما لا يدركه البصير الأحمق، فحيث اجتمع فيهم الحُمْقُ والعَمَىٰ، فقد انسدَّت عليهم أبواب الهداية، إلى طريق الرحمة والجنة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم، ولا يعاقب أحداً بدون ذنب، بل تكفَّل بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فضلاً منه جلَّ شأنه وكَرَماً ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليها، كما ظلموا أنفسهم باقترافهم الكفر، حيث عبدوا جماداً وهم أحياء.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي اذكرْ لهم يوم حشرهم ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ أي كأنهم لم يلبثوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي شيئاً قليلاً منه، فالساعةُ مَثَلٌ في غاية القلة، يستقصرون مدة لبثهم، لهول ما يرون من الكرب والعذاب ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً، كأنهم لم يتفارقوا إلاَّ قليلاً، وهذا تعارف توبيخ وافتضاح، يقول الواحد للآخر: أنت أغويتني وأضللتني!! وليس تعارف محبة ومودة. ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي لقد خسر حقاً هؤلاء الظالمون، الذين كذبوا بالبعث والنشور، والآية شهادة على خسرانهم، والتعجيب منه، والمراد بلقاء الله الحسابُ والجزاء ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ إلى طريق النجاة في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أي إن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا لتقرَّ عينك منهم فذاك، وإلاَّ فالعذاب ينتظرهم، والرؤية بصرية، أي إمَّا نرينك بعينك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب في حياتك، كما أراه يوم بدر ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن ننتقم منهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جواب للشرط، والمعنى: إنَّ عذابهم في الآخرة مقرَّرٌ، عُذّبوا في الدنيا أولا ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من الأفعال السيئة التي حُكيت عنهم، فيجازيهم عليها.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الخالية ﴿رَّسُولٌ﴾ بُعث إليهم ليدعوهم إلى الحقِّ، بشريعةٍ خاصة مناسبة لأحوالهم، ويؤكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1] ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات فبلَّغهم فكذَّبوه ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين الرسول ومكذبيه ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، فأُنجيَ الرسولُ، وأهلك الله المكذبين ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك القضاء، يُجازى كل أحد على قدر عمله، وقيل معنى الآية: لكل أمةٍ رسولٌ يوم القيامة، فإذا جاء رسولهم الموقف، ليشهد عليهم بالإيمان أو الكفر، قضي بينهم بإنجاء المؤمن، وعقاب الكافر، لقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[2] وهذا ممَّا رواه ابن جرير وغيرُه عن مجاهد.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؟ أي متى هذا العذاب الذي تعدنا به؟ يريدون به العذاب الدنيوي، ويقولون ذلك استبعاداً له واستهزاءً به، لا طلباً لوقت مجيئه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ خطاب منهم للنبي ﷺ والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآيات المتضمنة للوعيد.

---

(١) سورة فاطر، آية: ٢٤.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٩.

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا ﴾ فكيف أملك لكم فأستعجل في جلب العذاب إليكم، ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ الاستثناء منقطع، أي لكنْ ما شاء الله لي فإنه يحصل بتقديره تعالى، دون أن يكون لي دخل فيه ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم الذين أصرُّوا على التكذيب ﴿ أَجَلٌ ﴾ لعذابهم يحلُّ بهم عند حلوله ﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ ﴾ أي أجلُ هلاكهم ﴿ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾ عنه ﴿ سَاعَةٗ ﴾ شيئاً قليلاً من الزمان ﴿ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ عليه، فلا تستعجلوا العذاب، فسيجيء وقتكُم، وينجز وعدكم.

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ .

﴿ قُلۡ ﴾ يا رسول الله لهم، بعد ما بيَّنتَ لهم كيفية حالك، وجريان سنة الله تعالى فيما بين الأمم، ونبَّهتهم على أن عذابهم أمر مقرَّر، لا يتوقف إلا على مجيء أجله المعلوم ﴿ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ ﴾ الذي حدَّده لهلاككم، والذي تستعجلونه لجهلكم وحماقتكم، إذا جاءكم هذا العذاب ﴿ بَيَٰتًا ﴾ أي وقت بيات في الليل ﴿ أَوۡ نَهَارٗا ﴾ أي عند اشتغالكم بمشاغلكم، وإنما لم يقل «ليلاً ونهاراً» ليظهر التقابل، لأن المراد الإشعار بالنوم، والغفلة، والبياتُ يفيد ذلك، لأنه الوقت الذي يُبيّت فيه العدو، ويوقع فيه، ويغتنم فرصة غفلته، وليس في مفهوم الليل هذا المعنى ﴿ مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾؟ أيَّ شيء من العذاب يستعجلونه؟ وكلُّه مكروه لا يلائم الاستعجال؟ وكان ينبغي أن يفزعوا من العذاب، فضلاً عن أن يستعجلوه.

والمراد بقوله سبحانه: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ﴾ زيادة التنديم

والتجهيل، أي أبعد ما وقع العذابُ، وحلَّ بكم حقيقةً آمنتم به، حين لا ينفعكم الإيمان وقوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ أي قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب: الآن آمنتم به؟ إنكاراً للتأخير، وتوبيخاً عليه ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً واستهزاء.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ قِيلَ ﴾ لتوكيد التوبيخ ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي ظلموا أنفسهم بتعريضها للهلاك ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي المؤلم على الدوام ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي ما تجزون اليوم ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي إلا جزاء ما اقترفتموه من أنواع الكفر والمعاصي.

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ ﴾ أي يستخبرونك فيقولون على طريق الاستهزاء والإنكار ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي العذاب الموعود ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي قل لهم غير مكترث باستهزائهم: نعم إن ذلك العذاب ثابت لا محالة، أقسمُ لكم بربي، و«إي» بمعنى نعم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي وما أنتم بمعجزين ربكم بهرب أو امتناع من العذاب، لأنكم في قبضته وسلطانه[1].

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ بالشرك والتعدي على الغير، كما قال سبحانه: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ ﴿ مَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ من خزائنها وأموالها

(١) وذهب الطبري إلى أن المعنى: لستم بفارين من العذاب بل هو مدرككم لا محالة.

ومنافعها قاطبة مع كثرتها ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب، من قولهم افتداه بمعنى فداه أي لافتدت نفسها به ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ أي النفوس المدلول عليها بكل نفس، والاسرار: الإخفاءُ أي أخفَوْا ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي الغمَّ والأسف على ما فعلوا من الظلم ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ عند معاينتهم للعذاب، رأوا ما فيه من فظاعة الحال وشدة الأهوال ﴿وَقُضِىَ﴾ أي حُكم وفُصل ﴿بَيْنَهُم﴾ أي بين النفوس الظالمة ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أصلاً، لأنه لا يُفعل بهم إلاَّ ما يقتضيه جزاء أعمالهم، وقيل: ضمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾ للظالمين والمظلومين، والمعنى: وقُضيت الحكومةُ بين الظالمين والمظلومين.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب، أي إن له سبحانه لا لغيره تعالى، ما وُجد فيهما، فإنَّ من يملك جميع الكائنات، وله التصرف فيها، قادرٌ على ما ذُكر ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ما وعده من الثواب والعقاب، كائن لا خلف فيه، أي جميع ما وعد به كائناً ما كان، فيندرج فيه العذاب الذي استعجلوه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لقصور عقلهم واستيلاء الغفلة عليهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون.

﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا فهو يقدر عليهما في الأخرى، لأن القادر لذاته لا تزول قدرته، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت، قابلة لهما أبداً ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالموت إلى حسابه وجزائه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ التفات ورجوع إلى استمالتهم نحو الحق، غُبَّ تحذيرهم من غوائل الضلال، وإيذان بأن جميع ذلك مسوقٌ لمصالحهم ومنافعهم وهذا وجه الربط بما تقدم، والقرآن واعظٌ بما فيه من الترهيب والترغيب، كاشف عن الأعمال حسناتها وسيئاتها، ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ شفاء لما في الصدور من الأدواء القلبية كالجهل، والشرك، والشكوك، والنفاق، وسوء الاعتقاد وغيرها. ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والقرآن هاد إلى الحق واليقين، ورحمة للمؤمنين، حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال، إلى نور الإيمان والإيقان، وتخلصوا من دركات النيران إلى درجات الجنان.

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه إلى رسول الله ﷺ ﴿ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ ﴾ أي بإنزال القرآن الكريم، وهو المراد بالفضل، وبرحمته المراد بها الإسلام، وهذا هو المروي عن ابن عباس قال: فضل الله القرآنُ، ورحمته الإسلام، وروي عن مجاهد أن المراد بالفضل والرحمة القرآن، ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ أي إن فرحوا بشيءٍ، فبذلك فليفرحوا، لا بشيء آخر، فإنه أولى ما يفرحون به لا بالمال الزائل ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من حطام الدنيا من الأموال، والحرث، والأنعام، فإنها صائرة إلى الزوال، والسعادات الروحية أفضل من السعادات الجسمية.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله لكفار مكة ﴿ أَرَءَيْتُم ﴾ أي أخبروني ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ أي ما قُدّر لانتفاعكم من الرزق الحلال ﴿ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ أي قسمتموه إلى حرام وحلال، وقلتم افتراءً على الله ﴿ هَٰذِهِ أَنْعَامٌ

وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ وقلتم أيضاً كذباً وبهتاناً ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ إلى غير ذلك مع كونه كله حلالاً ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في التحليل والتحريم فتقولون ذلك بحكمه ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾؟ في نسبة ذلك إليه، والاستفهام للتقرير والتبكيت كأنه قيل: أم لم يأذن لكم بل تفترون عليه سبحانه، والآية زاجرة عن التجوز فيما يسئل من الأحكام وباعثة على الاحتياط فيه وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان، وإلا فهو مفتر على الله.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ كلام مسوقٌ من قِبَلِهِ تعالى لبيان ما سيلقونه، أي ما ظن هؤلاء الذين يتخرصون على الله الكذب، فيحلون ويحرّمون من تلقاء أنفسهم؟ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف للظن أي أيُّ شيء ظنهم في ذلك اليوم؟ أيحسبون ألَّن يعاقبوا ولن يُجازَوا عليه؟ والمراد تهويل ما يُصنع بهم يومئذ، وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بإمهالهم والإنعام عليهم بالعقل، وهدايتهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب حيث أرشدهم إلى ما يهمهم، من أمر المعاش والمعاد، وبيَّن لهم ما لا تستقل عقولهم بإدراكه، ورغَّبهم ورهَّبهم، وشرح لهم الأحوال، وما يلقاه الحائر عن الرشاد من الأهوال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعم الجليلة، فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم إلى ما خُلقتْ له.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ ما نافية، والخطابُ للنبي ﷺ، والشأنُ: الأمرُ والحال في أمر هام يُعتنى به ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾ أي وما تقرأ من كتاب الله شيئاً أنزله الله عليك ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ مجيد أوحاه الله إليك ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ تعميم للخطاب بعد تخصيصه، يتناول الجليل والحقير، أيْ أيَّ عمل كان، فعبّر في مقام الخصوص بالشأن، لأن عمل العظيم عظيم، وفي الثاني بالعمل العام لأنه يشمل جميع الأعمال ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي إلا كنَّا شاهدين رقباء عليكم، نحصي عليكم أعمالكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي حين تخوضون وتشرعون فيه، وأصل الإفاضة: الاندفاعُ بكثرة أو قوة، يعني أن الله سبحانه شاهد عليكم، حين تخوضون في ذلك العمل ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي لا يبعد ولا يغيب عن علمه الشامل ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ من مزيدة لتأكيد النفي، أي ما يغرب عنه ما يساوي مقدار وزن ذرة، وهي مَثَلٌ لأقصى الشيء في القلة ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي في دائرة الوجود والإمكان، والمقصود إقامة البرهان على إحاطة علمه سبحانه، وفيه تسليةٌ للمطيعين، وتخويف للمذنبين ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ من الذرة ﴿وَلَا أَكْبَرَ﴾ منها ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مقرر لما قبله والمراد بالكتاب اللوحُ المحفوظُ، وقيل: علمه تعالى:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة، بيانٌ على وجه التبشير والوعد، لما هو نتيجة لأعمال المؤمنين، في كل ما يأتون وما يذرون، أي الذين يتولونه بالطاعة، ويتولاهم بالكرامة، لا خوف عليهم من لحوق مكروه، ولا هم يحزنون بفوات مأمول والآية كمجمل يفسّره قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بكل ما جاء من عند الله تعالى ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى بامتثال أمره ونهيه، والمراد أنهم جمعوا بين الإيمان، والتقوى، المفضيَيْن إلى كل خير، المنجِيَيْن عن كل شر، فمِلاكُ أمر الولاية هو «التقوى» المأمور به في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ وبه يحصل الشهود والحضور، والقرب، فأولياء الله عزَّ وجل هم المؤمنون المتقون، أخرج أحمد وجماعة عن أبي مالك الأشعري قال: قال ﷺ: «إنَّ للهِ عباداً، ليسوا بأنبياء، ولا شهداء، يَغْبِطهم النبيون والشهداء، على قُربهم من الله تعالى، قال أعرابي يا رسول الله: انعتهم لنا، قال: أُناس تحابُّوا في الله...»[1] الحديث، وقد أورده ﷺ حسبما يقتضيه مقام الإرشاد، ترغيباً للحاضرين، وأريد بقوله ﷺ: «يغبطهم النبيون» الإشارة إلى راحتهم مما يعتري الأنبياء، من الاشتغال بأممهم، وقال بعض المحققين: إنَّ ذلك تصويرٌ على طريقة التمثيل، وأياً ما كان، فلا دليل فيه أن الولاية أفضل من النبوة، وقد كفر معتقد ذلك.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو ما بَشَّر به المتقين، في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، البشرى في الأصل الخبر بما يظهر السرور في بشرة الوجه، وورد أن البشرى في الحياة الدنيا هي: «الرؤيا الصالحة» فقد أخرج أحمد والترمذي، وابن ماجه عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند، وأورده الطبري وابن كثير، وتتمته «تحابوا في الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ ﷺ: ﴿ألا إن أولياء الله..﴾ الآية».

عن قوله سبحانه: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له»[1] وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يَبْقَ بعدي من النبوَّة إلاَّ المبشِّرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها المؤمن، أو ترى له»[2] والراجح أن البشرى في الدنيا هي أن تأتيهم الملائكة عند الموت تُبشِّرهم بالرحمة والرضوان، قال الله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ وقيل المراد بالمبشرات العاجلة نحو النصر، والفتح، والغنيمة، والثناء الحسن، والذكر الجميل، ونحو ذلك، روى مسلم عن أبي ذر قال: قيل لرسول الله ﷺ: «أرأيتَ الرجلَ يعمل من الخير، ويحمده الناسُ عليه!! قال: تلك عاجلُ بُشرى المؤمن»[3] ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشّرين بالفوز والكرامة ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده قطعياً ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ عما كان يلقاه من جهة الأعداء، من الأذية الناشئة من مقالاتهم الرديئة، وتبشير له ﷺ بالنصر والعز، إثر بيان أن له ولأتباعه أمناً من كل محذور، وفوزاً بكل مطلوب، فهو متصل بقوله سبحانه: ﴿ألا إن أولياء الله﴾ الآية ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ﴾ تعليلٌ للنهي، أي القوةُ، والنصرةُ، والغلبةُ

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٢٧٤ في كتاب الرؤيا، وأحمد في المسند.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه مسلم.

﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لا يملك أحد شيئاً منها، فهو يقهرهم ويعصمك منهم، وقد كان كذلك ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع ما يقولون في حقك، ويعلم ما يعزمون عليه، وهو مكافئهم بذلك.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ﴾ خَلْقاً، ومِلْكاً، وعبيداً ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ۗ﴾ أي العقلاء من الملائكة والثقلين، وتخصيصُهم بالذكر لبيان أنهم مع شرفهم، إذا كانوا عبيداً له تعالى، فما عداهم من الموجودات أولى بذلك ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من غير الله ﴿شُرَكَاءَ ۚ﴾ أي ما يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء، شركاء في الحقيقة وإن سموها كذلك ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتبعون يقيناً شيئاً ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي لا يتبعون إلا الظن والخيال الباطل كقوله تعالى: ﴿ما تعبدون من دُونِهِ إلاَّ أَسْمَاءً سميتموها﴾ ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ وما هم أي ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي إلا يكذبون فيما ينسبونه إليه سبحانه.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ مظلماً لتسكنوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ لتتحركوا فيه لمصالحكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في جعل كلٍّ منهما كما وصف ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي دلالات على توحيد الله تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبُّرٍ واعتبار، وتخصيص هؤلاء بالذكر لأنهم المنتفعون بها.

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾.

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ شروع في ذكر ضرب آخر من أباطيل المشركين، ممن زعم أن الملائكة بنات الله، وكذلك اليهود والنصارى قال الله تعالى لهم ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهاً وتقديساً له عما نسبوه إليه، وتعجيباً من كلمتهم الحمقاء ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ عن كل شيء في كل شيء علةٌ لتنزهه تعالى، وإيذانٌ بأن اتخاذ الولد، مسبّب عن الحاجة، وهو سبحانه الغني عن كل شيء ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي من العقلاء وغيرهم، وهو تقرير لغناه وتحقيق لما عليه لكل ما سواه ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي حجة ﴿ بِهَذَا ﴾ بما ذكر من القول الباطل، والالتفات إلى الخطاب، لمزيد المبالغة في التقريع والتوبيخ على جهلهم ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أتفترون على الله وتكذبون، فتنسبون إليه الشريك والولد؟ وفيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها فهي جهالة، وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعي، وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به.

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ تلوين للخطاب ليبين سوء مغبتهم، ووخامة عاقبتهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ بنسبة الولد والشريك إليه سبحانه ﴿ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أي لا ينجون من مكروه، ولا يفوزون بمطلوب.

﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي يتمتعون مدة حياتهم، كأنه قيل: كيف لا

يفلحون وهم في غبطة ونعيم؟ فقيل: ذلك متاع حقير، وقليل في الدنيا، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالموت والبعث ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ فيبقون في العذاب المؤبّد، بسبب كفرهم المستمر، فأين لهم من الفلاح؟ ولمَّا ذكر الله تعالى في هذه السورة، أحوال كفار قريش، شَرَع في بيان قصص بعض الأنبياء عليهم السلام، تسلية للرسول ﷺ، وعبرة لغيره.

﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾.

﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على المشركين ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي خبره الذي له شأن عظيم، مع قومه الذين هم أمثال قومك، لينزجروا بسماع ذلك عما هم عليه من الكفر والعناد ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ اللام للتبليغ ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ﴾ أي عَظُم وشقَّ، لأن من أَلِفَ ديناً، يثقل عليه أن يدعى إلى خلافه، ويُذكر له ركاكتُه ﴿عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ أي لبثي فيكم، ومكثي بين ظهرانيكم ﴿وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على الوحدانية، المبطلة لما أنتم عليه من الشرك، وإنما شقّ عليهم الوعظُ، لأن الطباع المشغوفة بالدنيا، الحريصة على طلب اللذّات العاجلة، تكون شديدة النفرة على الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ جواب للشرط أي فوضت أمري إليه لا على غيره، وهو عبارة عن إظهار عدم مبالاته عليه السلام باستثقالهم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ أجمع الأمر إذا عزم عليه، ويقال: أَجمعْ أمركَ ولا تدعْه منتشراً أي اعزموا على أمرٍ تفعلونه بي ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ الواو بمعنى مع أي مع شركائكم، التي زعمتم أنها شركاء لله سبحانه، وإسناد الإجماع إلى الشركاء على طريق التهكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ مستوراً، من غمَّه إذا ستره بل مكشوفاً ومشهوداً، تجاهروننني به، وإنما خاطبهم بذلك، إظهاراً لعدم

المبالاة بهم، وثقةً به سبحانه، بما وعده من عصمته ﴿ثُمَّ اقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي امضوا فيَّ ما أردتموني ولا تمهلوني، فإني لستُ مبالياً بكم.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فإن أعرضتم عن تذكيري ونصحي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ في مقابلة وعظي وتذكيري ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ تؤدونه إليَّ حتى يدعو ذلك إلى توليتكم، لثقله عليكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ تأكيد لما قبله، أي ما أجري وثوابي على العظة والتذكير، إلا على الله تعالى، يثيبني به آمنتم أو توليتم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي أُمرت لأن أكون من المنقادين لحكمه تعالى، فلا أخالف أمره، ولا أرجو غيره، أرشدهم عليه السلام إلى ما فيه سعادتهم وفلاحهم، وبلغ الغاية في التوكل على الله سبحانه، وبرَّأ ساحته عن السؤال منهم شيئاً من الأجر، ولكن القوم بلغوا الغاية في الكفر والتمرد والعناد.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصروا على ما هم عليه من التكذيب، بعدما ألزمهم الحجة، فلا جرم حقت عليهم كلمة العذاب ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ أي فأغرقنا القوم وأنجيناه من الغرق ﴿وَمَن مَّعَهُ﴾ من المؤمنين به، وكانوا في المشهور أربعين رجلاً، وأربعين امرأة ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ أي السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي من معه ﴿خَلَائِفَ﴾ في الأرض يخلفون الهالكين بالغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وهم الباقون من قوم نوح، وتأخير ذكر الإغراق عن الإنجاء، لتعجيل المسرة للسامعين ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ المخوفين بعذاب

الله تعالى، والمراد بهم المكذبين، والتعبير عنهم بذلك، للإشارة إلى إصرارهم على التكذيب، حيث لم ينجع الإنذار فيهم، وقد جرت العادة أن لا يهلك الله القوم إلا بعد الإنذار، فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة قوم، كذَّبوا الرسل عليهم السلام، وكذبوا آيات الله تعالى؟.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ أي أرسلنا ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد نوح ﴿ رُسُلًا ﴾ التنوين للتفخيم ذاتاً وصفة أي رسلاً كثيراً، كراماً، منهم: هود، وصالح، وإبراهيم، وغيرهم ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ كلُّ رسول إلى قومه خاصة ﴿ فَجَآءُوهُم ﴾ أي فأتى كل رسول قومه المخصوص به ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالحجج الواضحات المثبتة لدعواهم ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ أي فما صح لقوم من أولئك الأقوام، أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم في الكفر والعناد ﴿ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ وما موصولة والمراد بها جميع الشرائع التي جاء بها كلُّ رسول، بعد تواتر البينات التي تضطرهم إلى القبول، لو كانوا من أهل العقول ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الطبع المحكم ﴿ نَطْبَعُ ﴾ نختم ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أي المتجاوزين الحدَّ في الكفر والعناد، لانهماكهم في الغي والضلال.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ من بعد أولئك الرسل ﴿ مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ خُصَّتْ بعثتهما بالذكر، إيذاناً بخطر شأن القصة، وعظم وقعها كما في قصة نوح ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ أي قومه من استعمال الخاص في العام ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ بالمعجزات الواضحة ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ أي تكبروا عن قبولها، وتعظّموا عن الاتباع، الفاء فصيحة، أي فأتياهم فبلَّغاهم الرسالة فاستكبروا

﴿ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أي كانوا معتادين، لارتكاب الذنوب العظام، فلذلك اجترؤوا على ما اجترؤوا عليه، من الاستهانة والتكذيب.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ أي فلمَّا جاءهم موسى بالمعجزات الواضحة من اليد، والعصا، وسائر المعجزات البيّنات ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ من فرط عتوهم ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر كونه سحرا.

﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ ﴾ لهم على سبيل الاستفهام التوبيخي ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ ﴾ الذي هو أبعد شيء من السحر ﴿ لَمَّا جَآءَكُمْ ﴾ أي حين مجيئه إياكم، من غير تأمل وتدبر لما تقولون، من أنه سحر مبين؟ ﴿ أَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾؟ تكذيب لقولهم وتجهيل لهم، أيْ أيَّ سحر هذا الذي أمره واضح، لاترتاب فيه عين مبصرة ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ تأكيد للإنكار السابق، أي أتقولون إنه سحر، والحال أنه لا يفلح فاعله، وأنا قد أفلحتُ وظفرتُ بالحجة؟.

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ بعد أن ألقمهم الحجر، فانقطعوا عن الجواب الصحيح، واضطروا إلى التشبث بذيل التقليد، الذي هو دأب كل عاجز محجوج ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ أي لتصرفنا ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ من عبادة الأصنام وعبادة فرعون ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ ﴾ أي الملك والعظمة والتكبر على الناس باستتباعهم ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أرض مصر ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بمصدقين فيما جئتما به وأرادوا بقولهم هذا، إغاظة موسى عليه السلام، وإقناطه عن الإيمان بما جاء به.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ أسند الفعل إليه وحده، لأن الأمر من وظائفه، أي قال لملئه وجماعته ﴿ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ في فن السحر ماهر فيه.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ عطف على مقدر أي فأتوا فلمَّا جاء السحرة ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ ﴾ بعدما قالوا له ﴿ إِمَّآ أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَنْ نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾؟ ﴿ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ أي ما استقر رأيكم على إلقائه كائناً ما كان من أصناف السحر ولا يخفى ما في الإبهام من التحقير، والإشعار بعدم المبالاة.

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ ﴾ ما ألقوا من العصي والحبال، واسترهبوا الناس وجاؤوا بسحر عظيم ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ مُوسَىٰ ﴾ غير مكترث بهم وبما صنعوا ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾ أي الذي جئتم به هو السحر، لا الذي سمَّاه فرعون من آيات الله سحراً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴾ أي إن الله تعالى سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدي من المعجزة والسين للتأكيد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي لا يصلح عمل من سعى في الأرض بالفساد.

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ ﴾ أي يثبته ويظهره ويقويه بالحجج والبراهين ﴿ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ بوعده الكريم ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ذلك والمراد بهم كل من اتصف بإجرام من السحرة وغيرهم.

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ ﴾ في الآية حذفٌ، أي فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون.. الخ وإنما لم يذكره إيثاراً للإيجاز، أي فما آمن لموسى بمشاهدة تلك الآيات في مبدأ أمره ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ ﴾ طائفة ونفر قليل ﴿ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ من بني إسرائيل حيث لم يؤمنوا خوفاً من فرعون ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ ﴾ التنوينُ للتعظيم، أي كائنين على خوفٍ عظيم من فرعون وملئه، وضميرُ الجمع ﴿وملئهم﴾ يرجع إلى الذرية، والجمعُ باعتبار المعنى، ويؤول إلى أنهم آمنوا على خوف من فرعون، ومن أشراف قومهم ﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ أي يعذبهم، وإسناد الفعل إلى فرعون خاصة لأنه الآمر بالتعذيب ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي متكبر وغالب في أرض مصر، واستعمالُ العلو في الغلبة مجاز ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ المتجاوزين الحدَّ بادعاء الربوبية، وفي الظلم والفساد بالقتل والعتوّ.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ لما رأى تخوف المؤمنين منه ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾ أي صدقتم بالله وآياته ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ ﴾ وبه ثقوا، ولا تخافوا أحداً غيره، فإنه كافيكم كلَّ شر وضُرٍّ ﴿ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ مستسلمين لقضاء الله، مخلصين له.

﴿ فَقَالُواْ ﴾ أي قوم موسى مجيبين له من غير تلعثم في ذلك ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ عليه اعتمدنا لا على غيره، ويؤخذ من هذا أنهم كانوا مخلصين، ثم دعوا قائلين ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي موضع فتنة، أي لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا أو يفتنونا عن ديننا.

﴿ وَنَجِّنَا ﴾ أي خلصنا ﴿ بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي من أيديهم

وكيدهم، دعاء للإنجاء من سوء جوارهم، وسوء صنيعهم بعد الإنجاء من ظلمهم ولذا عبَّر عنهم بالكفر، بعدما وصفوا بالظلم.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا ﴾ أي اتخذا منزلاً ووطناً ﴿ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ ترجعون إليها للصلاة والعبادة ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ ﴾ أنتما وقومكما، ففيه تغليب المخاطب على غيره ﴿ بُيُوتَكُمْ ﴾ تلك فالإضافة للعهد ﴿ قِبْلَةً ﴾ مصلًّى، وقيل: مساجد نحو القبلة يعني الكعبة، فإن موسى كان يصلّي إليها، وكانوا في أول الأمر يصلّون في بيوتهم خُفية، كما كان المسلمون في أول الإسلام بمكة ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي حافظوا على الصلاة فيها حتى تأمنوا، والصلاة في المساجد أفضل، وأرجى للتضرع ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنصر والجنة.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۙ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾ هو ما يتزين به من لباسٍ، وحليّ، وفرش وأثاث ومراكب ونحوها ﴿ وَأَمْوَٰلًا ﴾ أنواعاً كثيرة من المال، كما يشعر به الجمع والتنوينُ ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۙ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ ﴾ عن دينك، والكلام إخبار من موسى، بأن الله تعالى إنما أمدّهم بالزينة والأموال، استدراجاً ليزدادوا إثماً، وذكر قوله تمهيداً للتخلص إلى الدعاء عليهم، أي إنك أوليتهم هذه النعمة، ليعبدوك وليشكروك، فما زادهم ذلك إلا طغياناً وكفراً، ليضلوا عن سبيلك، والمقصودُ عرض ضلالهم

وكفرانهم، فقدَّمه للدعاء عليهم ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ الطمسُ: المحقُ أي أهلكها وبدّدها كما قالهُ مجاهد فالمراد بالطمس إتلافها ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي اجعلها قاسية، واطبعْ عليها حتى لا تنشرح للإيمان، وهذا دليل على أن الله تعالى يفعل ذلك لمن يشاء، ولولا ذلك لما حَسُن من موسى هذا ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ جواب للدعاء ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي إلى أن يروا العذاب الموجع المؤلم، وكان كذلك، فإنهم لم يؤمنوا إلى الغرق، وعن ابن عباس تفسير العذاب الأليم بالغرق، وهذا يدل على أن الدعاء على الغير بالموت على الكفر، لا يكون كفراً، إذا لم يكن على وجه الاستحسان، بل على وجه التمني لينتقم الله منه أشد انتقام.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ أي قد استجبت دعوتكما على فرعون وقومه، وظاهر الآية يدل على أن هارون كان يؤمِّن على دعاء أخيه، والتأمينُ دعاء، ولهذا قال تعالى: ﴿قد أُجِيْبَتْ دَعْوَتُكُما﴾، ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه، من الدعوة وإلزام الحجة، فلا تستعجلان، فإن ما طلبتما كائن في وقته لا محالة، أخرج أبن المنذر عن ابن عباس أنه قال: يزعمون أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنة ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ﴾ أي طريق الجهلة الذين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بعادات الله تعالى في تعليق الأمور بالحِكَم والمصالح، أو سبيل الجهلة في الاستعجال، وعدم الوثوق بوعد الله تعالى.

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ هو من جاوز المكان إذا تخطَّاه، أي جعلناهم مجاوزين ﴿ ٱلۡبَحۡرَ ﴾ بأن جعلناه يَبَساً، حتى بلغوا الشطَّ، وفيه إشعارٌ بانفصالهم عن البحر، وبمقارنة العناية الإلٰهية لهم عند الجواز ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ ﴾ أي أدركهم ولحقهم ﴿ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ حتى تراءت الفئتان، وكاد يجتمع الجمعان ﴿ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ ﴾ أي للبغي والعدوان، وذلك أن موسى عليه السلام، خرج ببني إسرائيل، على حين غفلة من فرعون، فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم، ووصل إلى الساحل، وهم قد خرجوا من البحر، ومسلكهم باق على حاله، فسلكه بجنوده أجمعين، فلما دخل آخرهم، غشيَهم من اليم ما غشِيَهُم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ ﴾ أي لحقه وألجمه وقيل: قارب إدراكه لأن حقيقة اللحوق تمنعه من القول ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ ﴾ أي بأنه ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ ولم يقل كما قال السحرة ﴿آمنا برب العالمين﴾ للإشعار برجوعه عن الاستعصاء، طمعاً في القبول، والانتظام معهم في سلك النجاة ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ الذين أسلموا نفوسهم للهِ تعالى، كرر المعنى الواحد حرصاً على النجاة، وهيهات فالإيمان لا ينفعه قبل اليأس.

﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾ أي فقيل له: آلآن تؤمن؟ أي أتؤمن في حال اليأس، حين أدركك الغرق، وأيقنت بالممات؟ والقائل هو جبريل، فقد روي عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «قال لي جبريل لو رأيتني وأنا آخذ من حَالِ البحر ـ أي طين ووحل البحر ـ فأدسُّه في فرعون، مخافةَ أن تدركه الرحمة»[1] ﴿ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ ﴾ أي وقد عصيتَ الله قبل نزول نقمته بك، والفعل المقدر جيء به لتشديد التوبيخ على تأخير الإيمان إلى هذا الآن،

(١) أخرجه البيهقي والحاكم والترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٢٦٨ وقال: حديث حسن.

ببيان أنه لم يكن تأخيره لعدم بلوغ الدعوة إليه ولا للتأمل والتدبر بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والإفساد ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي وقد كنت من المفسدين، الموغلين في الضلال والإضلال!!.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي نخرجك من البحر، وفي التعبير عنه بالتنجية تهكمٌ به ﴿بِبَدَنِكَ﴾ جسدك الذي لا روح فيه، وهو تخييبٌ له ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ عبرة، فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك، وفي تعليل تنجيته بما ذُكر، إيذان بأنها ليست لإعزازه، بل لكمال استهانته وتفضيحه، كمن يُقتل ثم يُجرُّ جسده في الأسواق، وقد قرر فحوى الكلام بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بها.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلام مستأنف لبيان النعم الفائضة عليهم، وإخلالهم بشكرها، أي أسكنَّاهم بعدما أنجيناهم ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ منزل كرامة، صالحاً مرضياً للسكنى ﴿صِدقٍ﴾ وهو أرض الشام، بعد العمالقة وتمكنوا في نواحيها، والمراد من بني إسرائيل ذريتهم، لأنهم ما دخلوا في حياة موسى الشام، وإنما دخلها أبناؤهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي اللذائذ ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في أمر دينهم، بل كانوا متبعين رسولهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي إلا بعد ما جاءتهم التوراة التي فيها حكم الله، وهذا ذم لهم لأن اختلافهم كان بسبب الدين، والدين يجمع ولا يفرِّق، وقيل: فما اختلفوا في أمر محمد ﷺ، إلا بعد ما علموا صدق نبوته، بنعوته المذكورة في

كتابهم، وتظاهر معجزاته، وهو ظاهر إذا كان المراد من المبوئين ذريتهم، أما الذين كانوا في عصر موسى، فإنهم لم يختلفوا في أمر نبينا ﷺ لينسب إليهم ذلك الاختلاف[1] ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز بين المحق والمبطل، بالإثابة والتعذيب.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ هذا محمولٌ على الفرض والتقدير، كقوله عز وجل ﴿قُلْ إِنْ كَانَ للرحمن وَلَدٌ فأنا أَوَّلُ العَابدينَ﴾ ومحالٌ أن يكون لله ولد، وقيل: الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره ممن يسمع، أي إن كنت أيها السامع، في شكّ مما أنزلنا على لسان نبينا ﴿مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القصص التي من جملتها قصة فرعون، وأخبار بني إسرائيل ﴿فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ هو التوراة، فإنَّ ذلك محقَّق عندهم، ثابتٌ في كتبهم وروي أنه ﷺ قال: «لا أشكُّ ولا أسأل»[2] ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ أي ثبت عندك وأتاك البيانُ الحق، الذي لا ريب في حقيته ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وظهر ذلك بالمعجزات القاطعة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي الشاكِّين فيه المرتابين، والامتراء: الشكُّ والتردد.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

---

(١) هذا القول ذهب إليه الطبري ١١/١٦٧ حيث قال: كانوا قبل أن يبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته، والإقرار بمبعثه، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضُهم، وآمن البعض، فذلك اختلافهم.

(٢) هذا حديث موقوف على قتادة قال: «بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشك ولا أسأل» انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٠٧.

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي بشيء منها ﴿ فَتَكُونَ ﴾ بذلك ﴿ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ نفساً وعملاً وهذا كله من باب التَّهييج والتثبيت، وقطع أطماع المشركين عنه، وقيل: المراد ممن عنده شك وارتياب، وقد كان الناس في أول عصر النبي ﷺ على ثلاثة فرق: مصدّقون، ومنكرون، ومتوقفون، فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب، وإنما وحَّد الضمير لأنه خطاب لجنس الإنسان، وفيه تنبيهٌ على أنه من خالجته شبهة في الدين، ينبغي أن يسارع إلى حلّها، بالرجوع إلى أهل العلم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ثبتت عليهم ﴿ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي حكمه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر، ويخلدون في النار ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ إيماناً نافعاً عند معاينة العذاب، مثل فرعون والطغاة من كفار مكة.

﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾ واضحة المدلول، مقبولة لدى العقول، لأن سبب إيمانهم مفقود، لكنَّ فقدانه ليس لمنع منه سبحانه وتعالى، بل لسوء اختيارهم ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أي عند اليأس كدأب آل فرعون، والذي عليه أهل السنة أنَّ أفعال العباد بأسرها، معلومةٌ له تعالى، ومرادة، ولا يكون إلاَّ ما أراد الله سبحانه، ولا يريد إلا ما عَلِم، ولا جبر هناك ولا تفويض، ولكنَّ الأمر بين الأمرين، وإنْ أردت تحصيل الإيقان، فعليك رسالة المولى الكوراني في هذا الشأن.

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ أي فهلاّ كانت قرية من القرى المهلكة ﴿ءَامَنَتْ﴾ قبل معاينة العذاب، ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ بأن يقبل الله تعالى إيمانهم، فيكشف بسببه العذاب عنهم ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناء منقطع، أي لكنْ قوم يونس ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ أول ما رأوا أمارة العذاب، ولم يؤخروا إلى حلوله ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعدما أظلَّهم وكاد يحلُّ بهم ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ بمتاع الدنيا ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ مقدَّر لهم في علم الله تعالى، وكان من قصة هؤلاء القوم، على ما روي عن غير واحد، أن يونس عليه السلام، بُعِث إلى أهل «نينوا» من أرض الموصل، وكانوا أهل شرك، فدعاهم إلى الإيمان بالله وحده، فأبوا وكذَّبوه، فأخبرهم أن العذاب مصبِّحهم إلى ثلاث، فلما كانت الليلة الثالثة، ذهب عنهم من جوف الليل، فلما أصبحوا غامت السماء، غيماً أسود هائلاً، حتى غشيت مدينتهم، فقالوا: إنا لم نجرّب عليه كذباً قطُّ، فانظروا فإن بات فيكم الليلة، فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبّحكم، فطلبوه فلم يجدوه، فأيقنوا صدقه، فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم، ونسائهم، وصبيانهم، ودوابهم، وأظهروا الإيمان والتوبة، وتضرّعوا إلى الله تعالى، وأخلصوا النية، وقالوا في دعائهم: اللهمَّ إنَّ ذنوبنا قد عَظُمتْ، وجلَّتْ، وأنت أعظم منها وأجلُّ، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله، فرحمهم ربهم واستجاب دعاءهم، وكشف الضر عنهم، والفرق بين إيمانهم وإيمان فرعون، أن فرعون آمن في العذاب، وهم آمنوا قبله، وظاهر الآية أنهم شاهدوا العذاب، وعادة الله عز وجل حينئذ إهلاكهم من غير إمهال، وقبولُ إيمانهم من خصوصيَّاتهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ﴾ أي لو شاء سبحانه إيمان من في الأرض من الثقلين، لآمن كلهم مجتمعين على الإيمان، لكنه

لم يشأه لكونه مخالفاً لأساس التكوين والتشريع ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾؟ الفاء للعطف على مقدر، كأنه قيل: أربك لا يشاء ذلك، فأنت تكرههم؟ ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ليس لَكَ مشيئة الإكراه، والجبر على الإيمان، لأن الإيمان فعل العبد، وفعله لا يتحقق بدون الاختيار، والآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، وترويح لقلبه الشريف مما كان يحرص عليه من إيمانهم[1].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ أي ما صحَّ وما استقام لنفسٍ من النفوس البشرية ﴿أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي إلاَّ بإرادته وبتسهيله ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي الكفر بقرينة ما قبله، عبَّر عنه بالرجس لكونه عَلَماً في القبح ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يستعملون عقولهم، بالنظر في الحجج والآيات ولا يعقلونها.

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿قُلِ﴾ يا أيها الرسول لأهل مكة، حثّاً لهم على التدبر في ملكوت السماوات والأرض، وما فيهما من تعاجيب الآيات، ليتضح لك أنهم لا يعقلون ﴿ٱنظُرُوا۟﴾ أي تفكروا ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾؟ أيْ أيَّ شيء

---

(١) قال ابن عباس: كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلاَّ من سبقت له السعادة في الذكر الأول ـ أي اللوح المحفوظ ـ ولا يضلُّ إلاَّ من سبقت عليه الشقاوة في الذكر الأول. تفسير القرطبي ٨/ ٣٨٥.

بديع فيهما، من عجائب صنعه الدالة على وحدته وقدرته؟ ﴿وَمَا تُغْنِي﴾ وما تنفع ﴿ٱلْآيَٰتُ﴾ وهي التي عبر عنها ماذا في السماوات والأرض ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ بمعنىٰ الإنذارات، أي لا تنفع الآيات والإنذارات ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي عن قوم سبق لهم من الله الشقاء لأنهم لا يعقلون.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ أي فما ينتظر مشركو مكة وأضرابهم ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا﴾ أي إلاَّ مثل أيام أسلافهم الطغاة ﴿مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ من مشركي الأمم الماضية، ونزول عذاب الله بهم ﴿قُلْ﴾ تهديداً لهم ﴿فَٱنتَظِرُوٓا﴾ ما هو عاقبتكم ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك، وحاصله أن الأنبياء كانوا يتوعدون كفار زمانهم بأنواع العذاب، وهم كانوا يكذبون بها ويستعجلونها على سبيل السخرية، وكذلك الكفار في زمنه ﷺ يستعجلونها استهزاءً، فقيل لهم فانتظروا ما يحلُّ بكم، وأنا منتظر لنزول ذلك العذاب، لأن وعد الله لا يُخلف!.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ عطف على مقدَّر، كأنه قيل: أهلكنا الأمم ثم ننجي رسلنا المرسلة إليهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي نجيناهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنجاء ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي حقَّ ذلك حقاً علينا ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من كل شدة وعذاب، وفيه تنبيه على أن مدار النجاة هو الإيمان بالله وقوله ﴿حقاً علينا﴾ أي إنه كائن لا محالة، كأنه كالواجب عليه تعالى تفضلاً منه وكرماً.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ أُوثر الخطابُ باسم الجنس، إظهاراً لكمال العناية بشأن ما بُلغ إليهم ﴿ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى ﴾ أي إن كنتم في شك من حقيقة ديني الذي أدعوكم إليه، والتعبيرُ بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة، للإيذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل هو الشكُّ، وأما القطعُ بعدم الصحة فلا سبيل إليه ﴿ فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ في وقت من الأوقات، لأن العبادة هي غاية التعظيم، فلا تليق لأخس الأشياء من الأصنام، بل تليق بمن في يده الإيجادُ والإعدام، فانظروا بعين الإنصاف، لتعلموا أنه حق لا ريب فيه ﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ أي يقبض أرواحكم عند انتهاء آجالكم، وبيده وحده محياكم ومماتكم، فلا ينبغي لكم أن تشكّوا في ديني، وإنما الشكُّ في عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وأما إلهي فبيده النفع والضُر. ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بما دل عليه العقل، ونطق به الوحي، وهو تصريح بأن ما هو عليه من دين التوحيد، ليس إلا بالوحي السماوي والتوفيق الإلٰهي، وقيل لي:

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق وهو الإسلام، وإقامة الوجه للدين، كنايةٌ عن توجيه النفس بالكلية، إلى عبادته تعالى، والإعراض عمن سواه ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ أي لا تكوننَّ منهم، لا اعتقاداً ولا عملاً.

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا تدع من دون الله استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ مَا لَا يَنفَعُكَ ﴾ إن عبدته أو دعوته، بدفع مكروه، أو جلب محبوب ﴿ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ إن لم تعبده بإيقاع المكروه ﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ أي ما نُهيت عنه، كنَّى به تنويهاً لشأنه ﷺ على رفعة مكانه، من أن يُنسب إليه عبادةُ غير الله تعالى ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ جزاء للشرط، وهذا الخطابُ وإن كان في الظاهر للرسول ﷺ، فالمراد به غيره، أي تكون ممن ظلم نفسه لأنك عرّضتها لعذاب الله.

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ كفقرٍ ومرض، أو شدةٍ وبلاء ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ ﴾ عنك كائناً من كان ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ وحده، فيثبت عدم كشف الأصنام بالطريق البرهاني فإن رفع المكروه أدنى مراتب النفع ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ أي إن يرد أن يصيبك بخيرٍ ﴿ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ الذي أرادك به وفيه إيذان بأن فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضل، من غير استحقاق عليه ﴿ يُصِيبُ بِهِۦ ﴾ بالخير بفضله ﴿ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ وهو يدل على عموم الفضل ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فتعرضوا لرحمته بالطاعة ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية، قرر سبحانه في هذه الآية، أن جميع الأشياء مستندة إلى الله تعالى، ومحتاجة إليه، والرحمةُ والجودُ فائضٌ منه عزَّ وجلَّ.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ ﴾ وهو القرآن الكريم المنزل من عند رب العالمين ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ بالإيمان

والمتابعة ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾ أي منفعة اهتدائه لها خاصة ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن وبال ضلاله عليها، والمراد تنزيه ساحة الرسالة، عن شائبة غرض عائد عليه ﷺ، من جلب نفع، أو دفع ضر ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكولٍ إليَّ أمركم، إنما أنا بشير ونذير.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَٱتَّبِعْ﴾ اعتقاداً وعملاً وتبليغاً ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ من ربك من الحق المذكور ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على تكذيبهم وأذاهم وعلى ما يعتريك من مشاق التبليغ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ فيهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه، لاطلاعه على السرائر والظواهر، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد ﷺ وآله وأصحابه أجمعين.

«تمَّ بعونه تعالى تفسير سورة يونس»

* * *